القصة السابعة

الابنة الفاضلة "قصة حقيقية"

تقف أمام باب منزلها.. تطلع إليه بعين الاشتياق والحزن والفرح معا. تطلع إلى جدرانه التي فقدت لونها على مر الزمان... تخطو بضع خطوات أخرى فدخل من الباب الكبير.. تتجمع دمعات تترقرق في عينيها تجول بنظرها وكأنها تركته لسنين.. تتذكر بعض ضحكاتهم ودموعهم.. تتذكر لمتهم على مائدة الطعام وبعض من غضبهم الذي كان يزول بحضن واحد أو بقبلة على الخدود لكن تعود وتتذكر أن من ضحت من أجلهم لم يتذكروا التضحية... ليقاطع أفكارها هو حين يمسك من يدها وعلي وجهه ابتسامة حنونة ويقول: أهلا وسهلا بك ثانية في منزلك.

ابتسمت بحرقة في قلبها رغم أنها كان يجب أن تكون في غاية السعادة، لكن هناك بعض الأحداث التي تصيبنا فنفقد بعدها طعم الشعور بالسعادة بسبب المر الذي تجرعناه منها.

أجابت نادين بصوت تتقطع فيه الحروف وقالت: "كنت قد آمنت أني فقدت البيت إلى الأبد. كنت أظن أني سأشاهده فقط من بعيد حين أمر من هنا، أو أنني سأكتفي بقلب ألبوم الصور حتى أراه من خلاله..لكني لم أعتقد قط أن الله لا يضيع حق أحد.

أجابها وقال: "ولأن الله كبير ويعرف قدرك جيدا أرسلني لك وأهداني إياك. فمن يأتمن على حجر بشكل منزل يأتمن على قلب ينبض بالحياة سأعد فنجانين من القهوة لتريحي أعصابك قليلا وتجولي في المنزل أنه منزلك على أي حال".

قالت: لا تتعب نفسك أنا سأعد القهوة لك.

"لا.. هذه المرة القهوة عليَّ..".

تركها ودخل يتخبط في المطبخ يبحث عن الدولة والفنجان والقهوة وهي سمعت قوله وقامت تدور في المنزل كأنها لم تره منذ زمن... وطاردتها الذكريات من يوم فقدانهم أهم ركن في حياتها فيتملكها الشعور بالوحدة والضياع. الشعور بالوحشة والفراغ.. الشعور بالفقد المؤلم الذي لا يشابهه شعور.. كل الأحاسيس قد تترجم ويفهم معناها إلا فقدان الأم لا يستوعبه عقل ولا يضمه أي معنى في كتاب.

يفقد الإنسان أمه فيفقد معها توازنه ويختل في داخله الحزن والفرح عندما يفقد الإنسان أمه يفقد معنى الحياة لأن في وجودها الحياة.

عندما يفقد المرء أمه تتوقف عندها كل العبارات والكلمات نفقد الطمأنينة والسلام. نفقد الحب والحنان الذي منبعه الأم.

شعور متضارب يتشكل في داخل كل شخص ذاق أو يذوق طعم فقدان أحد الوالدين وخاصة لو كان الأولاد صغارًا ولا يبقى لديهم سوى ذراع واحدة تضمهم وهي ذراع الأب بعد أن كان للعائلة ذراعان.. نفقد فيها أحدهم ليختل توازن الأسرة، لكن في هذه الحكاية كانت الحكاية مختلفة.

نادين الأخت الكبرى.. الأم الثانية.. فتاة في السادسة عشرة من عمرا لما توفت أمها بعد مصارعة مع مرض السرطان تاركة خلفها ثلاث بنات أصغرهن ١٢ عاما وزوجا محبا تكسر قلبه وثقل حمله بعد أن فقد زوجته وشريكة عمره وحبيبته.

كان ل أسعد ثلاث بنات؛ نادين البكر، لجين الوسطى، ريما الصغيرة المدللة. تركتهم والدتهم وكان فراقها صعب جدا عليهم.. لم يكن بيد الوالد سوى أن يهتم ببناته بشكل أكبر وأكثر حرصا. ورغم الكثير من الاقتراحات التي طالبته بأن يتزوج من أخرى لترعاه وترعى فتياته لكنه لم يرضَ أن يجلب زوجة تكون أمًّا لبناته.. واعتمد على نادين في تربية أخواتها والاهتمام بهن في المنزل. هو كان رجلًا لا يملك من الدنيا سوى بيت ورثه عن والده وبدلة المحاماة التي يرتديها في المحاكم.

في بادئ الأمر كانت المصيبة التي وقعت كالصاعقة عليهم ثقيلة جدا، لكن بمرور الأيام بدأ الحزن يهدأ والحياة تسير كما هو مقدر لها. واستمرت الفتيات من حيث توقفن إلا نادين. حملت فوق كاهلها عبء أخواتها البنات ومتطلبات المنزل، وراحة والدها بالرغم من أنه لم يكن يطلب منها شيئا لأنه لم يكن يريدها أن تترك حياتها وتلتهي بهم.. بعكس أخواتها البنات الأصغر منها فبالرغم من أن ما حدث أثر في الجميع إلا أن تأثيره كان بحجم متفاوت بينهن وخاصة ريما فكانت فتاة غير مبالية كثيرة التطلب.. مراهقة لا تكف عن خلق المشاكل.. أما لجين. الفتاة الحالمة التي لا تهتم إلا بجمالها وشياكاتها ومظهرها الخارجي الذي كان مصدر قلق لوالدهم الذي كان يعمل ليل نهار من أجل أن يوفر لهن الحياة

التي تحلم بها كل واحدة، إلا نادين التي نسيت نفسها بين كل هذه الأحوال.

ومرت السنوات دخلت فيها لجين الجامعة حين كانت لا تزال نادين تدرس في سنتها الثالثة لأنها كانت تدرس بشكل متقطع بسبب عملها الذي كانت تعمل به لتساعد والدها في المصاريف بغد أن زادت أكثر كما هو واضح.

عادت نادين ذات يوم إلى المنزل من عملها فهي تعمل منذ سنتين في محل للزهور في منطقه راقية جدا من البلد وأصبح للمحل زبائن أكثر بسبب تعاملها الراقي والجميل وذوقها العالي في اختيار وتنسيق الزهور فهي بالأساس تدرس التصميم وتتمنى لو أنها في يوم ما تصبح مصممة أزياء ترتدي من تحت يديها المشاهير كانت قد جمعت لوقت طويل النقود حتى تشتري بها ماكينة للخياطة وتخيط عليها ملابس لها ولأختيها منها تزاول حلمها وتحققه ومنها أن توفر بعض النقود فوالدها رجل ليس بالعمر الذي يسمح له بالعمل لساعات طويلة كان قد عبر الستين فقد تزوج بالأصل متأخرا وأنجب ابنته الأولى وهو في الأربعين من العمر.

دخلت إلى غرفتها فوجدت لجين ترتدي الفستان الذي خاطته لنفسها حتى ترتديه في عرس صديقتها فتوقفت وتفاجئه وكانت قد نبهتهم أن لا يلمسوا الفستان لأنه لها.. استدارت لجين لما رأت نادين تقف أمام غرفتها وقالت: انظري يا أختي.. كم يليق بي لونه يعكس لون عيني..

حزنت نادين وقالت: "هذا الفستان لي.. لقد تعبت جدا حتى أكملت خياطته في الموعد المقرر أرجوك انزعيه واتركيه في غرفتي سأرتديه الليلة بعرس نهال".

عقدت لجين حاجبيها بتمرد وقالت: "ماذا فعلت أنا.. كنت أقيسه فقط... خذيه لا أريده وكأنك ترتدين فستان الأميرة ديانا".

نزعته بسرعة ورمته على سريرها بلا مبالاة وخرجت من الغرفة بتكبر واضح على وجهها شعرت نادين بالأسى فأخواتها تعاملنها كأنها خادمة لهن أو أنها أقل قيمة منهن ولكن كل هذا بسببها هي من جعلتهم يشعرون هكذا كانت تقدمهم على نفسها حتى أصبحوا على هذه الشاكلة ولم يعودوا يحترمونها كأخت كبيرة لهن.

أغلقت الباب خلفها تنفست بهدوء. أخذت الفستان ووضعته على جسدها لتراه عليها.. ابتسمت ودخلت إلى الحمام لتستحم ثم تتحضر من أجل عرس نهال.

لما خرجت كانت هناك جلبة في الصالة وحديث بين ريما ولجين على أمور لم تكن حتى تفكر فيها هي.. كانت الاثنتين تتشاجران من أجل علبة مستحضرات للتجميل.. وصوتهما يرتفع كثيرا.. في تلك اللحظة يدخل والدهما ليسكتا الاثنتين.. فيقول: "ماذا بكما صوتكما؟ قد وصل لنهاية الشارع ما الذي يحدث هنا؟ ألا تهدآن أنتما الاثنتين؟ كل يوم بهذا الحال".

كانت سترد لجين لكن والدها أسكتها.. نده على نادين فاتت مسرعة أعطاها ما يحمله بيده من احتياجات للمنزل وأخذت منه لجين حقيبة عمله وقضاياه، وجلبت ريما بسرعة كأس ماء بارد له جلس هو على الأريكة يريح جسده المتعب.. فاتت نادين وجلست بجانبه قائلة: "متى ستترك العمل يا أبي؟ أنت متعب جدا، وتحتاج للراحة".

ابتسم لها وقال: "أنا بخير لا تقلقي.. لدي بعض الطاقة التي أستطيع فيها أن أقاوم هذه الحياة أكثر".

ثم التفت إلى الأختين وقال: "الآن تحدثوا.. ما الذي يحصل بينكما؟".

بدأت لجين بالشرح ثم ريما.. كانت نادين غير مقتنعة بما تسمع من حديث تركتهم وعادت إلى غرفتها لتحضر نفسها من أجل العرس وبعد نصف ساعة من محادثات لا أهميه لها. أتت الأختين وقد حنت رأسيهما بعد أن وبخهما الأب.. وأرسلهما إلى غرفتهما كانت نادين ترتدي حلقا في أدنها لما التفتت إلى لجين وقالت: "هل حل الأمر؟".

أجابت لجين: "دائمًا يوبخنا ونتحمل الكثير من الكلام ثم نقارن بك وفي كل مرة يقول يا ليتنا لو كنا نشبهك".

ضحكت نادين وقالت: "لا، يكفي نادين واحدة.. من سيختلق المشاكل ويحرق الجو هنا؟".

أخذت حقيبتها وهي تعتزم للخروج، وقالت لأختيها: "اهتما بأبي حالما أعود.. لا أريد أي مشاكل.. هل فهمتما؟ ولو حدث شيء اتصلا فورا".

قالت ريما: "ستخرج سندريلا إلى الحفل.. هل يا ترى ستعودين بأمير بيدك". سمعت أن زوج نهال من الطبقة الثرية.

قالت نادين وهي تضع قبلة على خد: "لن أتزوج قبل أن أزوجكن.. والآن عمتما مساء تعقلا ولتتعبا أبي بأموركما..ويا حبذا لو تدرسن قليلا أفضل ولو حدث شيء ما اتصلا بي فورا".

خرجت من غرفتها وذهبت لعند والدها تخبره أن العشاء في الثلاجة لا

يحتاج إلى التسخين ولن تتأخر بالعودة.

في حفلة العرس كانت الأجواء لطيفة والناس كثير الطعام فاخر والموسيقا هادئة مثل حفلات الناس ذوي الطبقة العالية والباشوات كانت نادين تبحث عن عائلة نهال لتبارك لهم. لما اصطدمت بالخطأ بأحدهم وقد تسببت بطلق العصير على بدلته السوداء رفعت عينيها بإحراج جعل من وجنتيها تتلون بالاحمرار المنعكس من خجلها وقالت معتذرة: "آسفة.. آسفة جدا.. كان خطأي.. لم أرك وأنا أمشي".

ابتسم الشاب وهو ينظف السائل من بدلته وقال باحترام: "لا عليك لم يحدث شيء.. كما أن بدلتي سوداء لا أحد سيلاحظ الأمر. لا تهتمي أرجوك".

كان هو غارقا في جمالها فعيناه لم ترَ مثل هذا الجمال قط.. فتاة بعينين خضراواين.. شعرها النمري الطويل بنهايات لولبية.. شفتاها كلون دم الغزال.. تنده لكل رجل وتقول قبلني عنقها الطويلة وعلي خدها شامة سوداء كانت كإحدى أميرات دزني بل تفوقهن جمالا.

أما هي فكانت مضطربة بما حصل لما رأتها نهال فاتت لتسلم عليها.. قائلة: "نادين.. لقد أتيت.. كم أنا سعيدة بذلك؟ وأراك تعرفت بكريم".

ابتسمت نادين، وقالت: "لقد كان تعارفا كارثيا.. آسفة جدا مرة أخرى يا سيد كريم".

قال لها: "أرجوك لا تتأسفي.. ما حدث كان أمرا عاديا يحدث أغلب الأوقات ولا تناديني بسيد.. فقط كريم.. وسررت بمعرفتك جدا".

أومأت برأسها، ثم انضمت إلى ليلى.. أخذتا إياها من يدها لتريها الطاولة

التي ستجلس عليها مع عائلتها. لكن عيني كريم لم تتركاها وشأنها بل تبعتاها في كل مكان وتعمد أن يحدثها في كل فرصة حتى إن نهال كانت مسرورة جدا من هذا الاهتمام لأن كريم هو الصديق المقرب من زوجها وتعرفه حق المعرفة وهكذا كان معًا حتى انتهاء العرس.

طلب منها أن يقلها لكنها رفضت وأصر أن يلتقيها ولو لشرب كوب من القهوة.. وافقت بعد إلحاح منه وتبادلا أرقام الهواتف ووعدها أنه سيتصل بها.

ثم عادت إلى المنزل وهي تفكر بكريم والذي يريده منها.. لم تجرب الحب من قبل ولم تعشق قط من قبل.. فهل يا ترى الذي حدث هو بداية لقصة ما.

*****

مرت بضعة أيام ونسيت نادين تماما أمر كريم بين اهتمامها بالجامعة والعمل والمنزل وأخواتها ..كان بعد الظهر لما رن هاتفها رقم غريب.. أجابت: "الو".

"مرحبا هل أنت نادين أسعد".

أجابت: "نعم.. من معي؟".

"أنا أتصل من المستشفى العام.. والدك السيد أسعد نقل قبل قليل إلى الطوارئ وطلب مني الاتصال بك".

وقع الهاتف من يدها والآنسة تنادي من الجهة الأخرى من الهاتف ونادين لا تجيب.. شعرت بشيء يصوب إلى صدرها لا تريد أن تتكرر المأساة مرة أخرى لم تستطع أن تصدق ما سمعته للتو انقطع الخط ثواني مرت عليها كأنها ساعات منقطعة عن العالم.. صحت من غيبوبتها أخذت هاتفها وأوقفت أول تكسي أعطته العنوان ليوصلها إلى والدها.

وصلت وسألت الاستقبال فأمدوها بالمعلومات التي تحتاج.. ذهبت إلى الغرفة التي يرقد فيها.. الدهاء فتفاجأن به؛ كان لونه أصفر.. متعب.ز غارق في نوم عميق.. تقربت منه أمسكت بيده وبدأت بالبكاء حتى صحي على صوتها.. رتب بيده على رأسها ولما رأته قالت: "ما الذي حصل لك يا أبي.. كيف حدث هذا؟".

أجاب الأب: "يبدو أن العمر تغلب علي في نهاية الأمر وجسدي أعطى كلمته الأخيرة".

وبينما هما يتحدثان أتى الطبيب.. أخبرها أن والدها يعاني من قصور في القلب ولا يتحمل الإجهاد بعد اليوم.. ويجب أن يرتاح ولا يعمل بتاتا وإلا سيخسرونه قريبا.

أكدت نادين للطبيب أنها ستعتني بوالدها وتنفذ كل ما قاله له.. بقي يومين آخرين وبناته يلتفون حوله حزينات بما أصاب والدهن.

بعد أيام أخرجوا والدهم.. كانت الأسابيع الأولى هادئة نوعا ما.. حتى بدأت لجين بالبحث عن عمل لكن سرعان ما عادت الأمور على حالها.. ولكن هذه حالهم دائما هكذا كانت تفكر نادين.

بينما كانوا على العشاء ذات مساء.. رن هاتفها ولما نظرت إليه استغربت.. كان كريم من يتصل.. أسابيع مرت وكانت قد نسيته تماما بل اعتقدت أنه نسيها أيضا.. نهضت من المائدة وأجابت: الو.

"نادين هذه أنت؟؟".

"أهلا كريم.. ما الذي فكرك بي".

أجاب كريم معتذرا: أنا حقا أسف.. كنت سأتصل بك بوقت أقرب لكن العمل كان كثيرا وكنت مشغولا جدا.. حتى إني سافرت لثلاثة أسابيع خارج البلد ولم أعد إلا البارحة.. كنت سأتصل بك لكن ترددت خشية أن ترفضي مكالمتي لكني جربت حظي.

أجابت هي: "بصراحة وأنا كنت مشغولة جدا.. حتى لو كنت كلمتني ما كنت استطعت أن أحدثك.

قال لها: إذن نبدأ من جديد.. إذا لم يكن لديك مانع.. فإني متشوق جدا للتعرف إليك.

أجابت وهناك ابتسامة رسمت على شفتيها: "لماذا؟".

"لأنني أول مرة أرى ملاك يعيش على الأرض بيننا".

لم تجبه لأن ما قاله للتو لها جعلها تختزل كل كلامها بالصمت. وفجأة دق قلبها وشعرت بشعور غريب لم تحس به من قبل... شعور جميل لطيف وهي تستمع إليه يحدثها حتى اتفقا على موعد للقاء.

تكررت اللقاءات القصيرة بسبب انشغالاتها الدائمة.. لكنها كانت متحفظة جدا، كان اهتمامها به يأتي بالمركز الثالث تقريبا.

ثم انتهى العام الدراسي بمفاجأة غير متوقعة.. فقد تقدم لخطبة لجين زميلها في الجامعة ووافق الأب لأنهما كان يحبان بعض وفرحت نادين كثيرا لأنها ستطمئن على أختها.. وهي لا تزال كما هي.. لكنها تخرجت في الجامعة ودخلت ريما سنتها الأولى وكلما كان كريم يفاتحها بأمر الزواج كانت ترفض بحجة أن تتزوج أختها الصغيرة أولا.

أحس كريم بأنها لا تعتبره بمرتبة مهمة في حياته وكان هذا يحزنه.. حتى إنها لم تعرفه إلى أختيها أو والدها أما هي فلم تكن تريد أن تتأثر حياتها بشيء حاليا وكانت تعتقد أنها ستقصر على عائلتها لو اهتمت بنفسها أكثر.

وهذا كان السبب في فراق نادين عن كريم بعد علاقة حب لسنتين.. خرجت منها نادين مكسورة القلب، وكريم محطم الفؤاد.

ومرت السنوات بعدها.. ووالد نادين تسوء حالته.. وكانت للتو قد حصلت على عمل بإحدى دور الأزياء بعد أن ربحت جائزة أفضل مصمم وكانت غارقة في عملها حتى نسيت نفسها تماما.. ثم جاء يوم آخر سعيد وتزوجت أختها الصغيرة وآمنت عليهما ولم يتبقَ سواهما هي ووالدها في المنزل..فكانت تقضي معظم الوقت تعمل والوقت الآخر المتبقي تهتم بوالدها.. لم ترضَ أن تتركه رغم طلبات الزواج التي انهالت عليها طوال السنين لأنها لم تستطع أن تترك والدها المريض وحده فقد كانت هي الوحيدة التي تهتم به.. أما أختاها فكانتا تزورانهم كل فترة مثل أي ضيوف عاديين.. فأخذتهم الحياة لدوامتها.. لكن نادين بقيت كما هي الابنة الفاضلة المضحية.

ولا تزال نهال صديقتها المقربة التي تعرف كل أسرارها وأوجاع قلبها.. تعلم جيدا أنها لن تعشق سوى كريم ولن تترك والدها أبدا.

لكن والدها تركها وانتقل إلى جوار ربه ذاهبا ليلتقي زوجته تاركا نادين وحدها بلا أب ولا أم.. ولا سند تستند عليه ولا نفس يشاركها المنزل.

انتهى بها الحال وحيدة داخل جدران مليئة بالذكريات.. سمعت خطواته قادمة من خلفها استدارت إليه بابتسامة ممتنة كان يحمل فنجانين من القهوة في

صينية صغيرة بجانبها كأسين من الماء البارد وضعتهما على الطاولة أمامها..وقال: أروع فنجانين حضرتهما في حياتي أتمنى أن يكون على الأقل قابلا للشرب".

ضحكت هي رفعت الفنجان إلى شفتيها تذوقته.. وقالت: "بصراحة لم أذق هكذا قهوة في حياتي.. هل صحيح أنك أول مرة تحضرها؟".

قال: "صدقيني هذه أول مرة لكني حضرتها بحب كبير لهذا بدت طيبة".

تقربت منه واتكأت على صدره.. أخذها إليه محتضنا إياها يتلمس شعرها تارة ويقبل جبينها تارة أخرى.. إن أحضانه ملاذها ويديه موطنها وشفتيه أمنياتها، أما قلبه فكان منزلها.

المنزل ليس فقط الجدران والغرف أو النوافذ والأبواب المغلقة.. المنزل هو الذكريات والأمان والحب الذي يبنى عليه أساس كل منزل.

العائلة ليست أب وأم وأولاد، بل هي روابط وعاطفة واحترام.. لو فقدت إحدى ركائزها تنهار.

حين وقعت عيناها على برواز كان يحيط بصورة تجمعها هي وأختيها ووالديها قبل أن تفقدهما وقبل أن تكبر الأختان وتبتعدان؛ فالحب كاد يظفر من الصورة وكأن من كانوا في هذه الصورة ليس نفسهم الآن.

حينها تذكرت ذلك اليوم الذي فقدت فيه نادين آخر ما كان يربطها بهذه العائلة التي كانت يوما ما عائلة حين أتتها لجين وريما يطالبنه بحصتهما من إرثهما من والدهما في المنزل لأنهما تحتاجان للمال من أجل عائلتهما.

تذكرت كيف أتين إليها ذات يوم وكانت قد طال غيابهن كثيرا... اعتقد أنهن اشتقن لها وكانت سعيدة جدا لرؤيتهن لكنها تفاجأت بأنهن أتين وحدهن

دون أطفالهن وأزواجهن... قالت: "لمَ أتيتن وحدكن وأين الصغار؟ اشتاقت خالتهم لرؤيتهم".

نظرت الواحدة إلى الأخرى وقالت لجين: "لقد أتينا من أجل أمر مهم جدا نود أن نخبرك به".

ابتسمت نادين وقالت: "حدثوني بما تشاؤون بعد القهوة ساعدها لكم.. ثم نتحدث قليلا اشتقت حتى لشجاركم.. لقد أطلتما الغياب كثيرا".

قالت ريما وأجابت على وجه السرعة: "لا.. لا داعي لن يطول بقاؤنا.. استمعي لنا".

عادت وجلست نادين مرة أخرى، لكن شعورًا غريبًا وقع في صدرها حتى أحست أن معدتها تعكرت وقالت: "خير إن شاء الله.. ماذا هناك؟".

بلعت ريقها لجين قبل أن تقول: "لقد قررنا أن نبيع المنزل من أجل تقسيم الإرث.. نحتاج إلى المال من أجل عائلتنا".

بحلقت نادين فيهما وهي غير مصدقة بما يقولان.. كيف لهن أن يفكران هكذا وأين ستبقى هي؟ ألم يفكرا أنها ما زالت تعيش فيه.. قالت: "لكنني ما زلت هنا.. كيف تفرطون به وتبيعونه.. إنه ذكرى والدينا وذكرياتنا".

قالت ريما: "لكننا لم نعد نعش به ونحتاج إلى المال الذي سيأتي منه وأنت تستطيعين تدبير أمرك.. تعملين وتؤجرين منزلا أصغر.. ما الذي ستفعلين بهذا البيت الكبير؟".

ابتسمت بحزن يشعل صدرها وقالت: "لا أدري بما أجيبكن، لكني لا أريد بيع المنزل".

نهضت لجين وقالت بغضب: "لمَ أنت أنانية هكذا؟ ليس لديك عائلة أو أطفال.. ليس لديك أحد ونحن نحتاج للمال.. ألا ترين؟ لقد صبرنا كثيرا من أجلك وأنت تعيشين وحدك هنا.. تستطيعين تأجير منزل والعيش أيضا ما الذي تفعلين بالمال الذي تجنيه؟".

كان وقع كلمات لجين مثل خناجر تغزو قلبها واحدة تلو الأخرى.. عن أي أنانية تتحدث وهي تركت حياتها من أجلهم حتى إنها ضحت بحب عمرها من أجلهم... أجابت والعبرة تخنقها: "أنانية.. أنا أنانية يا أختي من الذي ضحى بنفسه وبكل وقته من أجلكم.. كنت لكم أمًّا في حين متت أمنا، وأختًا تستندون عليها وصديقه تحتاجون إليها.. والآن تريدون أن تخرجوني من بيت أبي من أجل حفنة نقود".

قالت ريما معقبة: "لكن حفنة النقود هذه نحن نحتاج إليها.. كما أنه ليس منزل أبيك فقط وهو منزلنا أيضا ولنا الحق فيه كما أنت".

ثم أكملت لجين وقالت: "لم نطلب منك أن تترك حياتك لأجلنا.. أنت لم يكن لديك حياة أصلا ولعبت دور الأم حتى تملأين كل الفراغات".

هذه كانت الضربة القاضية لها فبعد هذا الكلام لم تستطع تمالك نفسها وقامت بطردهم خارج المنزل وهن أعطينها أسبوعا لتفكر بالأمر أو ينفذن ما قلن.. انصدمت مما آلت إليه الأمور وبما طلبته منها الأختان.. ما الذي ستفعله وكيف تفرط في هذا المنزل وهو ما تبقى لها من والدها ووالدتها... كيف ستفرط بسنين عمرها التي انقضت بين هذه الزوايا؟

لم تكن صدمتها فقط في طلبهما للإرث، بل في أنانيتهما التي فاقت كل شيء..

وعدم تفكيرهما بأختهم الكبيرة التي ليس لديها مكان تأوي إليه سوى هذا المنزل ليس لديها سند مثلما لديهن.. لم يفكرن للحظة بماذا ستفعله لو فعلا بيع المنزل وتقاسمتا الورث وأين ستذهب هي كل همهن كانت مصلحتهن فقط دائما ما كانت مصلحتهن تأتي بالمرتبة الأولى عليها دائما.

لم تصدق قط ما يحدث وكيف تتعامل الأختان. لم تعد تصدق فعلا أنهن أخواتها بالفعل وإنما كأنا قد ولدا من نفس الأم والأب.. بل حتى إنها هي من ربتهن وتعبت عليهن كأنها أمهن.

لم يكن لديها سوى نهال لتشكي لها أمرها وتساعدها في إيجاد حل لمشكلتها... وما كان من نهال إلا أن تخبرها أن تصبر فقد يأتي الحل من عند الله. أو أنها تأخذ حصتها وتؤجر بها شقة صغيرة ومع عملها تستطيع أن تعيش بسهولة.

لم يكن هم نادين العمل أو النقود ولم يكن لديها مشكلة في إيجاد مكان لتبيت فيه بل المشكلة كانت في أنها لا تريد البيع ولا تريد الخروج من المنزل..

مر الأسبوع وكانت نادين تعيش مثل ضائعة تجوب في هذا العالم.. لم تركز في عملها حيدا فطلبت إجازة مرضية.. لم تأكل أو تشرب مثل خلق الله كل ما كانت تضعه في فمها تستطعم المرارة فيه لكن نهال لم تتركها وكانت إلى جانبها تواسيها.. مر الأسبوع وفي اليوم الثامن توقف رجل أمام باب المنزل.. رن جرس الباب ففتحت.. كان هناك يقف الرجل ببدلة رسمية يحمل كومة أوراق بيده عرف عن نفسه بأنه دلال من البنك من أجل تقيم البيت حتى يباع كادت تطرده لكنها فكرت أن ليس لديه ذنب.. سمحت له بالدخول من أجل معاينة المنزل

واتصلت هي بنهال تخبرها.. وما كان من صديقتها سوى المواساة.

بعد بضعة أيام جاءها اتصال من مكتب العقارات الذي تولى أمر بيع المنزل ووافقت على لقائه... فكرت في خلال الأسبوع كثيرا ووصلت إلى استنتاج أنها لن تستطيع أن تقف بوجه أختيها من أجل المنزل.. ليس لأنها لا تستطيع بل لأنها لحد الآن تعتبرهن أختيها.. ومن أجل طيبة قلبها وافقت على البيع.. بشرط أن تؤجر المنزل ستة شهور حتى ترى منزلا آخر.. ووافق المشتري المجهول مع صاحب مكتب بيع العقارات.

وذهبت مثلما ذهبت أخواتها وتقابلن عند صاحب مكتب العقارات وكان قد أتى للمنزل عرض مغرٍ جدا بعد أن عرض للبيع بيوم واحد فقط... فرحت الأختان، لكن نادين كان قلبها يتقطع بألم لم تتحدث معهن مهما حاولن التحدث معها وقعت على الأوراق التي تحتاج إلى توقيع ثم خرجت تاركة إياهن يحتفلن بهذا الانتصار.

*****

كان الوقت مساء لما نده كريم على نادين ليخبرها أنه ينتظرها في السيارة حاملة بيده حقيبة صغيرة كانت قد حضرتها له نادين أخذها بيده وقال: "نادين.. هيا استعجلي أنا ذاهب لأشغل السيارة وأمي تنتظرنا على العشاء لقد اتصلت للتو.. أخذت الحقيبة البنية معي وأنت اجلبي الأخرى".

صاحت بصوتها وقالت: "تمام... أنا آتية خلفك خمس دقائق فقط".

عادت لتأخذ ماجاءت من أجله بالرغم من أن هذا المنزل لم يتركها ولم تتركه/ لكنها في آخر اليوم غادرته، لكنها احتفظت به أيضا من أجل كل ذكرياتها

حتى المؤلمة أيضا.

ابتسمت لنفسها في المرآة المعلقة في غرفتها.كم هي صدفة جميلة ترتدي نفس الفستان الذي ترتديه الآن قبل ثلاثة أشهر فقط حينما كانت تقف هكذا أيضا وسمعت طرق الباب نزلت لترى من الطارق وتفاجأ بحب حياتها واقفا أمام باب منزلها.

شلت أطرافها فبعد سنين عديدة تراه الآن واقفا أمامها ولم يتغير به أي شيء.. ابتسم وقال: "أليس هنا مرحبا مثلا؟".

ابتسمت وتوترت وأجابت: "بلا.. أهلا وسهلا.. لكن..."".

قاطعها وقال: "هل أستطيع الدخول؟".

قالت وهي تفسح المجال له: "بالطبع تفضل".

دخل إلى المنزل وهو يجول بعينيه فيه وقال: "كم تمنيت أن أزورك هنا منذ سنوات.. تذكرين؟".

قالت: "طبعا أذكر. وأنت ما زلت تذكر".

"وهل ينسى المرء حب حياته... هل نسيتني؟".

قالت: "لا.. ولا حتى للحظة واحدة".

أجاب مبتسما: "وأنا لم أنسَ بل عشت كل هذه السنين القطيعة بيننا على ذكرياتنا معا.. ولكن بعد الآن سيتغير الوضع".

قالت باستغراب: "لماذا؟".

"لأني يا نادين عدت ولن أعيش وحدي كما يبدو أنك عشت وحدك وما زلت.. أخبرتني نهال كل شيء وأنا هنا الآن ولن أخرج قبل موافقتك بالزواج بي".

دهشت.. ابتسمت.. فرحت كل المشاعر التي كانت تحزنها طردها للتو كريم بقوله هذا لم تستطع حتى الإجابة وأكمل هو قائلا: "هل أعتبر هذا الصمت قبولا أم العكس أم أنك تفكرين لأننا لا نحتاج إلى التفكير من أجل ارتباطنا نحن مرتبطين منذ سنوات وسنكمل من حيث توقفنا".

نهض كريم ومد يده إليه وقال: "هل أنت موافقة.. إذا كنت موافقة سآخذك الآن وأعرفك إلى أمي".

لم تفكر كثيرا لم تفكر قط.. مَدَّت له يدها... وكانت هذه اليد الوحيدة التي مدت لها.. وتمسكت بها بقوة وبعد شهر بالضبط تزوجا وكان زواجهما يحكي عنه في كل مكان دعت أخواتها مثل أي غريب كان قد حضر العرس.

أخذها بعدها إلى شهر عسل ليعوضها ولو لجزء صغير مما لم تعشه، ثم عادا وكانت سعيدة جدا معه كل السنين التي تفارقوا بها محيت في ليلة واحدة.. وكأنهم لم يفترقوا قط.

وتفاجأت به ظهر اليوم لما اتصل بها وأخبرها أن لدية مفاجأة لها وأخبرها أنه سيمر عليها ليأخذها كي ترى مفاجأتها... استعدت بفضول يغمرها وخرجت معه وهي تتساءل عن المفاجئة وهو أصر أن لا يتكلم حتى يصل إلى مكان محدد، وكانت المفاجأة لما وقفت السيارة أمام منزل والدها القديم فتغيرت تقاسيم وجهها وأمتلأ الحزن قلبها وعينيها وقالت: "لمَ أتيت هنا؟".

أخرج من حقيبة السيارة علبة وأعطاها إياها وقال: "افتحي العلبة".

أخذتها... فتحت وجدت مفاتيح المنزل بنفس الميدالية القديمة لم يتغير شيء نظرت إليه وقالت: "إنها مفاتيح منزل أبي".

أجاب: "هذه مفاتيح منزلك أنت".

قالت: كيف؟".

أجاب: "إنه منزلك أنت.. منذ أول مرة بيع هذا المنزل كان لك".

أجابت والتساؤل يظهر على عينيها قبل لسانها: "كيف يعني؟ لم أفهم".

أخرج ورقة من جيبه وفتحها وقال: "انظري.. اسمك موجود على عقد الشراء لي أحد آخر".

أخذت الورقة غير مصدقة وهي تقرأ والدموع تقع الواحدة تلو الأخرى.. احتضنته بشدة وقبلته عدة مرات.. ثم قالت: "كيف..كيف فعلت كل هذا؟ أنا أحلم يا ألله ماذا فعلت لأستحقك؟".

أجاب وقال: "نهال كانت تخبرني كل شيء وخاصة آخر فترة ولم أستطع الوقوف دون فعل أي شيء.. فاشتريت المنزل لك ثم ظهرت أمامك مرة أخرى كنت واثقًا أننا سنكون لبعض لأن حبنا كان مختلفا جدا.. أما ما الذي فعلته لتستحقيني، فقد فعلت الكثير لكن أنا من أستحقك لا أنت من تحافظ على عائلة بأكملها وبيت من حجر ستحافظ على حب رجل طوال العمر.. وأنا فخور لأنك زوجتي والآن هل تريدين الدخول إلى منزلك".

ابتسمت له وفتحت باب السيارة ونزلت.. والآن تفتح الباب مرة أخرى وتصعد بجانبه لتكمل حياتها مع رجل يستحقها.. أمسك بيدها قبلها وقال: "أحبك يا نادين". أجابت: "وأنا أيضا".

((سئل أحد العرب "بأي شيء يعرف وفاء الرجل دون تجربة واختبار"، قال "بحنينه إلى أوطانه، وتلهفه على ما مضى من زمانه)). مقتبس.